إعانة المستفيد

بشرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد الشيخ: محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو الهيئة الدائمة للإفتاء

مؤسسة الرسالة

ناشرون

إعانة المستفيد

بشرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد الشيخ: محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة

ناشرون

والنوع الثاني : حبس اللسان عن التشكّي لغير الله سبحانه وتعالى .

والنوع الثالث : حبس الجوارح عن لطم الخدود وشقّ الجيوب .

ويقول أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ : (الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد؛ فلا إيمان لمن لا صبر له)، ويقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : (وجدت أنّ الله ذكر الصبر في القرآن في تسعين موضعًا)؛ مما يدلّ على أهميّته، وعلى عِظَم شأنه .

فالصبر له مقامٌ عظيمٌ في الدين، ولا بد للمؤمن من الصبر لِمَا يواجه في هذه الحياة من المشاكل ومن المشاق والصعوبات لكنه يصبر عليها طاعةً لله سبحانه وتعالى .

وقوله : « على أقدار الله » أقدار جمع قدر، والقدر : ما قضاه الله سبحانه وتعالى في خلقه، فإن كلَّ شيء يجري في هذا الكون فإنه مقدَّر، ليس هناك شيء يجري بدون تقدير الله سبحانه وتعالى؛ الله عِلمه وقدّره وكتبه ووقّته بوقت يحدُث فيه، فإنه سبحانه وتعالى أول ما خلق القلم قال له : « اكتب »، قال : ما أكتب ؟ قال : « اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة »، فكَتب في اللوح المحفوظ كلَّ شيء؛ فما من شيء يجري إلا وهو مقدّرٌ من الله سبحانه وتعالى وموقّتٌ بوقت لا يتقدّم عليه ولا يتأخّر عليه .

والإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستّة كما قال جبريل للنبي ﷺ : أخبرني عن الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره »؛ فجعل الإيمان بالقدر ركنًا من أركان الإيمان؛ والله تعالى يقول : ﴿ إنا

وقول الله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه ﴾ .

قال علقمة : (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلِّم) .

كلَّ شيء خلقناه بقدر ﴾، وكما في "الصحيح" : « قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء » . فما من شيء يجري في هذا الكون من صغير أو كبير إلا وقد قدّره الله سبحانه وتعالى .

❁❁❁

قال : « **وقول الله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾** هذا بعضُ آية من سورة التغابُن، وأولها قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ .

فقوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة** ﴾ يعني : أن جميع المصائب التي تنزل بالناس من أول الخليقة إلى آخرها، فإن الله قدّرها، ليس هناك مصيبة تحدُث في العالم إلا وقد قدّرها الله سبحانه وتعالى .

﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أي : بقضائه وقدره؛ لأن إذن الله على نوعين :

إذنٌ قدري كوني، مثل قوله تعالى : ﴿ **وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ أي : بتقديره ومشيئته .

والنوع الثاني : الإذن الشرعي، مثل : قوله تعالى : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ .

قوله : « **قال : علقمة** » هو : علقمة بن الأسود، من كبار التابعين، أحد النَّخَعِيِّين الثلاثة .

ومعنى قوله : « **هو الرجل تصيبه المصيبة** » يعني : تنزل به المصيبة، إما في نفسه وإما في ماله وإما في ولده وإما في أهله وإما في أقاربه، فلا يجزع، ولكن يعلم أنها من عند الله، يعلم أن الله قد قدّرها وقضاها، وما قضاه الله وقدّره فلا بد أن يقع، فلا يقول : لو أني فعلت كذا، لو أني عملت كذا ما نزلت بيَ المصيبة . فالمؤمن يعلم هذا فيهون عليه الأمر، يعلم أنها من عند الله فيرضى بقضاء الله، ولا يجزع ولا يسخط، ويسلّم لله عز وجل، يسلّم لقضاء الله وقدره .

وقد سمّى الله هذا التسليم وهذا الرضى إيمانًا، فقال : ﴿ **ومن يؤمن بالله** ﴾ يعني : يرضى بقضاء الله ويسلّم له، ﴿ **يهد قلبه** ﴾؛ وهذا هو الشاهد : أن الله سمّى الصبر على المصيبة والرضى بقضاء الله وقدره إيمانًا .

﴿ **يهد قلبه** ﴾ فثمرة الرضاء بقضاء الله والصبر والاحتساب : هداية قلبه، لأن الله يجعل في قلبه الإيمان والبصيرة والنور، وهذه ثمرة الصبر على قضاء الله وقدره .

أما الذي يجزع فإن ذلك يسبّب العكس، يسبّب عمى قلبه، واضطّراب نفسه، فهو يكون دائمًا في اضطراب وقلق . أما المؤمن فهو مرتاح، من هذا كله .

فدلت الآية على مسائل عظيمة :

المسألة الأولى: أن المصائب كلها بقضاء الله وقدره .

المسألة الثانية : أن الرضى بها والصبر عليها من خصال الإيمان، لأن الله سمّاه إيمانًا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : أنّ رسول الله ﷺ قال : « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب، والنياحة على الميت » .

المسألة الثالثة : أنّ ذلك يُثمر هداية القلب إلى الخير وقوة الإيمان واليقين .

❁❁❁

قوله ﷺ : « **اثنتان** » يعني : خَصْلتان .

« **في الناس** » في بني آدم حتى ولو كانوا مسلمين فإنه يوجد في بعض المسلمين بعض خصال الجاهلية .

« **هما بهم كفر** » هو كفر أصغر، لأن الكفر إذا نُكِّر فإنه يُراد به : الكفر الأصغر، أما إذا عُرِّف بـ(الألف واللام) فإنه يُراد به : الكفر الأكبر، كما في قوله : « بين العبد وبين الكفر والشرك : تركُ الصلاة »، وليس كلُّ من قام به خصلة من خصال الكفر يكون كافرًا خالصاً، وإنما يكون فيه خصلة من خصال الكفر، كما أنه ليس كلُّ من فيه خصلة من خصال النفاق يكون منافقًا خالصاً، وإنما تكون فيه خصلة من خصال النفاق .

فالخصلة الأولى : « **الطعن في النسب** » تقدم الكلام عليه في باب سابق .

والخصلة الثانية : « **النِّياحة على الميِّت** » والنياحة معناها : إظهار الجَزَع على الميت، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه .

والمطلوب والواجب : الصبر على موت الأقارب أو موت الأحباب .

ولا يمنع هذا أن الإنسان يتألّم ويبكي، فالبكاء لا مانع منه، والنبي ﷺ بكى على ابنه إبراهيم، وقال : « إن العين تَدْمَع، والقلب يحزن،

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : « ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية » .

ولا نقول إلا ما يُرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . وهذا من الرحمة، وأيضًا هذا لا يستطيع الإنسان حبسه .

فالآية دلّت على أن الصبر والرضى من خصال الإيمان، والحديث دلّ على أن الجزع من المصيبة وإظهار الجزع أنه من خصال الكفر؛ فهما متضادّان .

❁❁❁

قوله : « **ولهما** » أي : البخاري ومسلم .

« **عن ابن مسعود مرفوعًا** » أي : إلى النبي ﷺ .

« **ليس منا** » هذه الكلمة كثيرًا ما تأتي عن الرسول ﷺ على معاصٍ تصدُر من الناس من باب التحذير منها، مثل قوله : « من غشّنا فليس منا »، وقوله ﷺ : « ليس منا من تشبّه بغيرنا »، ومنه هذا الحديث .

وهذه الكلمة « **ليس منا** » معناها : البراءة ممّن فعل ذلك، ولكن ليس معناها أنه يخرُج من الإسلام، وإنما معناها : التنفير من هذا العمل . وأحسن ما يُقال فيها : أنها من ألفاظ الوعيد، ولا تُفسَّر، لكن مع اعتقاد أنّ هذا لا يدل على الخروج من الدين بأدلّة أخرى دلّت على أنّ أصحاب الكبائر التي دون الشرك لا يخرُجون من الدين . والنياحة من الكبائر، لكنها دون الشرك؛ فلا تُخرِج من الدين .

وقوله ﷺ : « **من ضرب الخدود** » ضرب الخدود جزعًا من المصيبة، لأن المشروع الصبر، وهذا عكسه، وهذا من باب الغالب .

« **وشَقَّ الجيوب** » جيوب الثياب؛ جزعاً من المصيبة .

« **ودعا بدعوى الجاهلية** » يعني : نادى عند المصيبة بالألفاظ التي تقولها الجاهلية، والمراد بالجاهلية : ما كان قبل بعْثة الرسول ﷺ في وقت الفترة . فلا يجوز أن نقول بعد بعثة النبي ﷺ : الناس في الجاهلية، أو الناس في جاهلية جهلاء . هذا لا يجوز أبدًا، لأن الله رفع الجاهلية ببعثة الرسول ﷺ، ولكن : قد تبقى خصالٌ من خصال الجاهلية، فيقال - مثلاً - : هذا من الجاهلية، هذا من خصال الجاهلية . وليس مَنْ قام به خصلة من خصال الجاهلية يكون من أهل الجاهلية . فلا يجوز إطلاق الجاهلية بعد بعثة النبي ﷺ .

ومعنى « **دعا بدعوى الجاهلية** » : أن يتلفّظ بألفاظ الجاهلية، كأن ينادي ويقول : وا عضداه، وا نصيراه، وا كذا وكذا . وكذا إثارة العصبيات والقوميات والحزبيات، وما إلى ذلك . كل ذلك من دعوى الجاهلية .

قال ابن القيِّم - رحمه الله - : (المراد بدعوى الجاهلية : كل من تعصّب إلى مذهب، أو تعصّب إلى قبيلة) .

فالعصبية الجاهلية والنخوة الجاهلية كلُّه يدخل في دعوى الجاهلية؛ فلا يجوز للمسلم أنه يتعصّب لأحد العلماء أو لأحد المذاهب ولا يقبل غير هذا المذهب أو لا يقبل غير هذا الرجل من العلماء، هذه عصبية؛ أو يتعصّب لقبيلته ولو كانت على خطأ، كما يقول الشاعر :

وهل أنا إلا من غَزِيّة إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإن تَرْشَد غزية أَرْشَد

والواجب على المسلم : أن يَتْبَع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، والله سبحانه وتعالى يقول :

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين** ﴾ .

فلا تجوز العصبية للمذاهب، ولا تجوز العصبية للأشخاص، ولا تجوز العصبية للقبائل، وإنما المسلم يَتْبَع الحق مع من كان، ولا يتعصّب، ولا يترك الحق الذي مع خصمه . فالمسلم يدور مع الحق أينما كان، سواءً كان في مذهبه، أو مع إمامه، أو مع قبيلته، أو حتى مع عدوه . والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل، والله تعالى يقول : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾، والنبي ﷺ يقول : « قُلِ الحق ولو على نفسك »، « قل الحق ولو كان مُرًّا » .

❁❁❁

قوله ﷺ : « **إذا أراد الله بعبده الخير** » أي : من علامة إرادة الله بعبده الخير : أن يعجِّل له العقوبة على ذنوبه؛ لأن الذنوب تصدُر من الإنسان بكثرة، ليس هناك أحدٌ معصوم إلا الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما عصمهم الله منه، « كلكم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون »؛ والإنسان تصدُر منه ذنوب كثيرة ومخالفات؛ فإذا أراد الله بعبده خيرًا عجّل له العقوبة على هذه المعاصي في الدنيا حتى يطهِّره، وحتى ينتقل إلى الدار الآخرة ليس عليه ذنوب فيدخل الجنة .

قوله ﷺ : « **وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه** » فلا تنزل به عقوبة، مع أنه يعصي ويزني ويخالف أوامر الله سبحانه وتعالى، ومع هذا يُنَعَّم